

أعلام الإسلام

المحدث الشيخ أبو الحسن عبيد الله الرحمانى المباركفوري رحمه الله مؤلف مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح حياته وأعماله

(٨)

الشيخ أسعد أعظمي / الأستاذ بالجامعة السلفية

اشتغاله بالتدريس:

سبق أن عرفنا أن الشيخ رحمه الله تخرج في المدرسة الرحمانية عام ١٣٤٥ هـ وعيّن مدرسا في المدرسة نفسها في العام الدراسي اللاحق، ولم يزل يدرس فيها إلى آخر حياة المدرسة، ولم ينقطع عن التدريس في هذه المدة إلا سنتين، وذلك حينما قرر مسؤولو المدرسة ابتعائه إلى موطنه مباركفور لمساعدة شيخه المحدث محمد عبد الرحمن المباركفوري رحمه الله، الذي كان يصنف كتابه تحفة الأحوزي شرح جامع الترمذي، وكان قد كف بصره في آخر حياته، ولم يزل عمل التأليف مستمرا، فطلب الشيخ من مسؤولي المدرسة الرحمانية السماح لإرسال الشيخ عبيد الله الرحمانى إليه ليساعده في إكمال تأليف الشرح، فسمح الشيخ عطاء الرحمن مدير المدرسة بذلك، وقرر أن يقوم الشيخ الرحمانى بمساعدة شيخه المباركفوري على الراتب الذي يتقاضاه من المدرسة إلى أن يكتمل الشرح. عاد الشيخ الرحمانى مدرسا في المدرسة بعد سنتين عندما تم تأليف الشرح، واستمر في عمل التدريس، وبحث في هذه الحلقة عن: الكتب التي قام بتدريسها، وكيفية تحضيره للدروس، وطريقة تدريسه، وانطباعات الدارسين والحاضرين في دروسه، وكذلك نعرض أسماء بعض أشهر تلامذته أيضا إن شاء الله.

المواد التي قام بتدريسها:

اشتغال الشيخ بالحديث وعلومه معروف، ولا يكاد يذكر الشيخ إلا ويذكر معه علم

الحديث وجهوده لخدمته، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن يهتم بالمواد الأخرى، فالعلوم الآلية والعالية لا يمكن الاستغناء ببعضها عن بعض، فمن هنا نرى أنه في حياته التدريسية الممتدة في نحو عشرين سنة قام بتدريس علوم الفقه والأصول والنحو وغيره إلى جانب تدريسه للحديث وعلومه، أما في فن الحديث فقد درس صحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود وموطأ الإمام مالك وبلوغ المرام، وفي الفقه درس شرح الوقاية، المجلد الأول والثاني، وفي النحو درس شرح الشيخ عبد الرحمن الجامي على الكافية لابن الحاجب.

هذا ما اطلعت عليه مصرحاً في المراجع مما يتعلق بالعلوم التي قام بتدريسها، ولا عجب إن كان هناك علوم أخرى سنحت له فرصة تدريسها ولم يرد ذكرها في هذه المراجع المتوفرة لدينا.

كيفية إعدادهِ للدروس:

يذكر الدارسون على الشيخ أنه كان يجتهد في مطالعة الكتب وتحضير الدروس اجتهداً بالغاً، ولا يخرج إلى الدرس إلا بعد استعداد كامل وتحضير تام، وكان قد ينهمك في المطالعة بالليل بحيث لا يشعر بمضي الوقت فلا ينتبه إلا بأذان الفجر، وكان يبدأ في تدريس صحيح البخاري بعد صلاة الفجر مباشرة، ويذكر الشيخ عبد الغفار حسن الرحمانى رحمه الله، أحد تلامذة الشيخ، والمدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سابقاً، أن الشيخ عبيد الله الرحمانى كان في تدريسه لموطأ الإمام مالك يراجع شروح الموطأ مثل شرحه للزرقانى، والمسوى والمصنفى للشاه ولي الله الدهلوي وغيرها من الشروح، ويقوم بالتعليق على الكتاب ونقل المعلومات المهمة في الهوامش بخطه الدقيق. (١)

ويقول تلميذه الآخر الشيخ محمد مرتضى: كان الشيخ يهتم في إعدادهِ للدروس بمطالعة كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والتفسير وغيره، وذلك حتى لا يبقى هناك

(١) جريدة الاعتصام الأسبوعية، لاهور، ٤ / نوفمبر ١٩٩٤ م، ص: ٢٠ - ٢١.

جانب من الجوانب غير واضح. (١)

يجدر بالذكر أن الشيخ الرحمانى في فترة بقائه في مدرسة دار الحديث الرحمانية في دهلي لم يصاحب أسرته معه هناك، ويعلل ذلك في إحدى رسائله إلى الشيخ عبد السلام الرحمانى قائلاً: "لا شك أن اصطحاب العائلة عند العمل في الخارج يسبب الراحة ولكن في الوقت نفسه يسبب ازدياد الأشغال، الأمر الذي يوقع في الحرج والإخلال في الأعمال العلمية خاصة وفي المطالعة ومراجعة الكتب وفي التدريس على وجه أخص، فلذلك لم نأخذ عائلتنا معنا في فترة إقامتنا بدهلي رغم الترغيب والتحريض". (٢)

طريقة تدريسه:

بهذا الاستعداد وبهذا التحضير كان الشيخ يدخل في قاعة الدرس ويفيض من بحار معرفته وينثر اللآلي والدرر، ويسهب في شرح عبارة الكتاب، يبين غامضها ويوضح مغلقها، ولا يدخل في الموضوع الثاني إلا بعد أن يتأكد من استيعاب الطلاب للموضوع الأول، ويبين أحد تلامذته أن طريقة تدريسه للحديث الشريف أن يبدأ أحد الطلبة بقراءة نحو ثلاثة أحاديث، ثم يتكلم الشيخ حول تخريج الأحاديث، ثم يتحدث عن السند، وبعد ذلك شرح متن الحديث، المتضمن بيان آراء الفقهاء، وأدلتهم وبيان الراجح، والتوفيق بين الأحاديث المتعارضة إن وجدت. وكان يستعين في كل ذلك بذاكرته، وأحياناً بما كان كتب في الهوامش عند تحضير الدرس. (٣)

ويذكر تلميذ آخر له كيفية تدريسه لكتاب شرح الوقاية فيقول: كان الشيخ يدرسنا المجلد الأول والثاني من كتاب شرح الوقاية، فكان يدخل في الفصل باستعداد تام، وكان يملك معلومات واسعة حول كل درس، ومن ثم يقوم بالتدريس بكل كفاءة. وكان يكتب في

(١) مجلة محدث، العدد الخاص، ص: ٧٨.

(٢) مكاتيب حضرة شيخ الحديث ص: ٣٠.

(٣) مجلة صراط مستقيم، برمنجهام، نوفمبر، ديسمبر ١٩٩٨ م ص: ١٥.

حواشي الكتاب تعليقاته وخلاصات مقروءاته، وكان يتبسم في أثناء الدرس، ويلقي نظره على كل طالب من الطلاب، ويستفسرهم عن مدى استيعابهم للدرس، وكان يستعين في دروس الفقه بالأحاديث وبمنهج السلف، وفي دروس الحديث يستعين بأقوال المحدثين، وخاصة بأقوال وأدلة ابن حجر. (١)

انطباعات الدارسين والزائرين:

سجل عدد من أهل العلم الذين تيسر لهم التتلمذ على الشيخ انطباعاتهم وذكرياتهم، متلذذين بتذكر تلك الأيام والساعات التي قضوها في دروس الشيخ، متعددين مزايا تدريسه وخصائص تعليمه، منوهين بمآثره، مثنيين على كمال تمكنه وجمال أسلوب إلقاءه. ففي مقال لطلبة مدرسة دار الحديث الرحمانية ورد من الثناء على الشيخ وطريقة تدريسه ما ترجمته:

”..... من حسن حظنا أننا ندرس هذا العام صحيح البخاري وجامع الترمذي على الشيخ الرحماني ... ونجد من المتعة والسعادة في درسه ما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، فالتحقيقات العلمية، والنكات الدقيقة، والتوفيق بين الأحاديث، وشرح الأحاديث، والمباحث الدقيقة لعلم الحديث، نجد أن شيخنا يتمتع بموهبة إلهية في كل ذلك قلما تيسر لغيره.“ (٢)

ويقول الشيخ عبد الغفار حسن الرحماني:

”كان الشيخ الرحماني يتمتع بخبرة تامة في علم الحديث، وكان يدرس باجتهاد وعناية بالغين، ورغم تدهور صحته كان يلقي دروسه عن مطالعة وتحقيق، يقدم الأدلة النقلية والعقلية للطلبة ويقنعهم بها، وينقل المعلومات إلى أذهانهم، وكان يجمع معلومات واسعة مفيدة، ويأتي بها في الدرس، ولكن وللأسف لم نتمكن من تسجيل هذه المعلومات أو

(١) مجلة محدث، العدد الخاص، ص: ٢٠٦.

(٢) أيضاً، ص: ٣٠٩.

قيدها بالكتابة“ (١)

ويقول تلميذه الشيخ محمد مرتضى:

”كان يجتمع في درسه عدد كبير من الطلبة، فكان يحضر في درسه طلبة المدارس الأخرى إلى جانب طلبة المدرسة الرحمانية، خاصة في درس صحيح البخاري وسنن أبي داود وسنن الترمذي، بل يحضر في هذه الدروس الأساتذة وشيوخ الحديث من مدارس أخرى“ (٢)

ومن الشخصيات البارزة التي كانت تزور المدرسة وتجلس أحياناً في درس الشيخ الرحمانى، الشيخ أبو يحيى خان النوشهروى مؤلف كتاب ”تراجم علماء حديث هند“، ترجم الشيخ النوشهروى في كتابه هذا للشيخ الرحمانى، فمن جملة ما كتب في ترجمته قوله: ”..... الشيخ عبيد الله (مدرس بدار الحديث الرحمانية) بلغ من تفقهه في الحديث في حداثة سنه أنه حين يجلس لتدريس الحديث يحل عقد السند والمتن كليهما، ويميز بين الجيد والزييف، ويكشف عن رموز فقه الحديث“ (٣)

ومن هؤلاء الأفاضل السيد أبو الحسن علي الندوي، الذي يقول في رسالة تعزية له عند وفاة الشيخ الرحمانى: ”لما كان الشيخ في دهلي وكان مشغولاً في العمل المبارك لتدريس الحديث الشريف سعدت بالحضور في درسه، وسررت جداً بسماع هذا الدرس، وأدركت مدى تفوقه العلمي وسعة نظره وتمكنه من الفن..“ (٤)

تلامذته:

أرى من المناسب أن أقدم كشفاً لبعض تلامذة الشيخ بمناسبة ذكر تدريس، ومن

(١) مجلة صراط مستقيم برمنجهام، نوفمبر، ديسمبر ١٩٩٨ م ص: ١٥.

(٢) مجلة محدث، العدد الخاص، ص: ٧٨.

(٣) تراجم علماء حديث هند، ص: ٤٠٨.

(٤) مجلة محدث، العدد الخاص، ص: ٢١.

المعلوم أنه قضى نحو عقدين في التدريس في الرحمانية، وإحصاء عدد الدارسين عليه في هذه الفترة الطويلة أمر في غاية من الصعوبة، فأكتفي بذكر أشهرهم، مع العلم بأن معظمهم فارقوا الدنيا، وعدد قليل منهم يتنعم بالعيش، "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر"، وإليكم أسماء هؤلاء الأعلام:

- (١) الشيخ عبد الرؤف نعمة الله الرحماني (٢) الشيخ عبد المعيد البنارسي
 - (٣) الشيخ زين الله ، الطيب فوري (٤) الشيخ عبد الجليل الرحماني (٥) الشيخ محمد إقبال الرحماني (٦) الشيخ محمد عاقل الرحماني (٧) الشيخ محمد إدريس آزاد الرحماني
 - (٨) الشيخ عبد الرحيم البستوي البستوي (٩) الشيخ محمد زمان الرحماني (١٠) الشيخ عبد السلام البستوي (١١) الشيخ عبد الغفار حسن الرحماني (١٢) الشيخ محمد خليل الرحماني (١٣) الشيخ حكيم عبيد الله الرحماني (١٤) الشيخ عبد القيوم البستوي (١٥) الشيخ أحمد الله الرحماني الدلال فوري (١٦) الشيخ محمد يوسف الرحماني البهرايجي
 - (١٧) الشيخ عبدالستار الرحماني المالدي (١٨) الشيخ محمد مسلم الرحماني المالدي
 - (١٩) الشيخ عبدالحكيم مجاز الأعظمي المئوي (٢٠) الشيخ محمد عابد الرحماني. (١)
- (يتبع)

